

# مستقبل اللغة العربية

والعالم العربي - ٤

ردود المستشرقين والادباء على استفتاء المهلول

[ افلال ] يتصر في هذا الجزء على ايراد رد الكاتب النابتة جبران خليل جبران ،  
وفي الجزء التادم ان شاء الله نأتي على بقية الردود

رد جبران خليل جبران

ناخبة المهجر

(١) ما هو مستقبل اللغة العربية ؟

انما اللغة مظهر من مظاهر قوة الابتكار في مجموع الامة ، اودانها العامة ،  
فاذا هجعت قوة الابتكار توقفت اللغة عن مسيرها ، وفي الوقوف التقهقر وفي  
التقهقر الموت والاندثار

اذا فمستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن - او غير  
الكائن - في مجموع الامم التي تتكلم اللغة العربية . فان كان ذلك الفكر موجوداً  
كان مستقبل اللغة عظيماً كاضيقا وان كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر  
شقيقتها السريانية والعبرانية

وما هذه القوة التي ندعوها بقوة الابتكار ؟

هي في الامة عزم دافع الى الامام . هي في قلبها جوع وعطش وشوق الى  
غير المعروف ، وهي في روحها سلسلة احلام تسعى الى تحقيقها ليلاً نهاراً ولكنها  
لا تحقق حلقة من احد طرفيها الا اضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف  
الآخر . هي في الافراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة ، وما النبوغ في الافراد  
سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفية في اشكال ظاهرة محسوسة . ففي  
الجاهلية كان الشاعر يتأهب لان العرب كانوا في حالة التأهب ، وكان ينمو

ويتمدد أيام المحضرمين لان العرب كانوا في حالة النمو والتمدد ، وكان يتشعب أيام المولدين لان الامة الاسلامية كانت في حالة التشعب . وظل الشاعر يتدرج ويتصاعد ويتلون فيظهر آناً كفيلسوف ، وآونة كطبيب ، وأخرى كفلكي حتى راود النعاس قوة الابتكار في الامم العربية فنامت وبنومها تحول الشعراء الى ناظمين والفلاسفة الى كلاميين والاطباء الى دجالين والفلكيون الى منجمين اذا صح ما تقدم كان مستقبل اللغة العربية رهن قوة الابتكار في مجموع الامم التي تتكلمها ، فان كان لتلك الامم ذات خاصة ( أو وحدة معنوية ) وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربية عظيماً كماضيها - والا فلا

\*\*\*

(٢) وما عسى أن يكون تأثير التمدين الاوربي والروح الغربية فيها ؟  
 انما ( التأثير ) شكل من الطعام تناوله اللغة من خارجها فتمضغه وبتلمه وتحول الصالح منه الى كيانها الحي كما تحول الشجرة النور والهواء وعناصر التراب الى افان فاوراق فازهار فثمار . ولكن اذا كانت اللغة بدون اضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدًى بل ينقلب سماً قاتلاً : وكم من شجرة تمثال على الحياة وهي في الظل فاذا ما نقلت الى نور الشمس ذبلت وماتت . وقد جاء « من له يعطى ويزاد ومن ليس له يؤخذ منه »

وأما الروح الغربية فهي دور من ادوار الانسان وفصل من فصول حياته . وحياة الانسان موكب هائل يسير دائماً الى الامام ، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكون اللغات والحكومات والمذاهب : فالامم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكرة ، والمبتكر مؤثر ، والامم التي تمشي في مؤخرته هي المقلدة ، والمقلد يتأثر ، فلما كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدينتنا التأثير العظيم على لغاتهم ، وها قد اصبحوا هم السابقين وامسينا نحن اللاحقين فصارت مدينتهم بحكم الطبع ذات تأثير عظيم على لغتنا وافكارنا واخلاقنا

يسد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويتلغونه  
محولين الصالح منه الى كيأنهم الغربي ، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون  
ما يطبخه الغربيون ويتلغونه ولكنه لا يتحول الى كيأنهم الشرقي بل يحولهم  
الى شبه غربيين ، وهي حالة اخشاها وأتبرم منها لأنها تبين لي الشرق تارة كهجوز  
قد اضراسه وطوراً كطفل بدون اضراس ؟

ان روح الغرب صديق وعدو لنا . صديق اذا تمكنا منه وعدو اذا تمكن  
مننا ؛ صديق اذا فتحنا له قلوبنا وعدو اذا وهبنا قلوبنا ؛ صديق اذا اخذنا منه  
ما وافقنا وعدو اذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي تواقفه

\*\*\*

(٣) وما يكون تأثير التطور السياسي الحاضر في الاقطار العربية ؛  
قد اجمع الكتاب والمفكرون في الغرب والشرق على ان الاقطار العربية في  
حالة التشويش السياسي والاداري والنفسي . ولقد اتفق اكثرهم على ان التشويش  
مجلبة الخراب والاضمحلال

اما انا فاسأل - هل هو تشويش ام ملل ؟  
ان كان مللاً فالملل نهاية كل امة وخاتمة كل شعب <http://www.archive.org/details/...> الملل هو الاحتضار في  
صورة النعاس والموت في شكل النوم

وان كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً لأنه يبين ما كان  
خافياً في روح الامة ويبدل نشوتها بالصحو وغيوبتها باليقظة ونظير عاصفة مهبز  
بعزمها الاشجار لا تقتلعها بل لتكسر اغصانها اليابسة وتبعثر اوراقها الصفراء . واذا  
ما ظهر التشويش في امة لم تنزل على شيء من الغفلة فهو اوضح دليل على وجود  
قوة الابتكار في افرادها والاستعداد في مجموعها . . . انما السديم اول كلمة من كتاب  
الحياة وليس باخر كلمة منها ، وما السديم سوى حياة مشوشة

إذا فتأثير التطور السياسي سيحول ما في الاقطار العربية من التشويش الى  
نظام ، وما في داخلها من الغموض والاشكال الى ترتيب والفة ، ولكنه لا وان



يبدل مللها بالوجد وضجرتها بالحماسة : ان الخزاف يستطيع أن يصنع من الطين جرة للخمر او للخل ولكنه لا يقدر أن يصنع شيئاً من الرمل والحصى

\*\*\*

(٤) هل يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم ؟

لا يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية حتي تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة ، ولن تعلم بها جميع العلوم حق تنتقل المدارس من ايدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية الى ايدي الحكومات المحلية

في سوريا مثلاً كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة ، وقد كنا ولم نزل نلثم خبز الصدقة لاننا جياع متضورون ، ولقد احيانا ذلك الخبز ، ولما احيانا اماتنا . احيانا لانه ايقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلاً ، واماتنا لانه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وابعد ما بين طوائفنا حتى اصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب كل مستعمرة منها تشد في جبل احدي الامم العربية وترفع لواءها وتترجم بمحاسنها وامجادها . فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة اميركية قد تحول بالطبع الى معتمد اميركي ، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيراً افرسياً ، والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية اصبغ ممثلاً لروسيا . الى آخر ما هناك من المدارس وما تخرجه في كل عام من الممثلين والمعتمدين والسفراء . واعظم دليل على ما تقدم اختلاف الآراء وتباين المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي . فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الانكليزية يريدون اميركا وانكلترا وصية على بلادهم ، والذين درسوها باللغة الافرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى امرهم ، والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك بل يتبعون سياسة ادني الى معارفهم واقرب الى مداركهم

وقد يكون ميلنا السياسي الى الامة التي نتعلم على نفقتها دليلاً على عاطفة عرفان الجميل في نفوس الشرقيين ، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة وتهدم جداراً من الجهة الاخرى ؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة وتقتلع غابة ؟ ما هذه العاطفة التي نحينا يوماً وتمتينا دهرأ ؟

ان المحسنين الحقيقيين وأنحاب الاربحية في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الحيز الذي بعثوا به الينا ، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا . ولكن كيف تولد ذلك الشوك ومن أين أتى ذلك الحسك ؟ هذا بحث آخر اتركه الى فرصة اخرى

نعم سوف يعم انتشار اللغة العربية في المدارس العالية وغير العالية وتعلم بها جميع العلوم فتتوحد ميولنا السياسية وتتلور منازعنا القومية لان في المدرسة تتوحد الميول وفي المدرسة تنجوهر المنازع ، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الامة . لا يتم هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما جسده والآخري روحه . لا يتم هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا ، لان المتسول المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدق الاربحي . ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب ، فالموهوب مستبر دائماً والواهب مخير أبداً

•••

(٦) وهل تغلب ( اللغة العربية الفصحى ) على اللهجات العامية المختلفة وتوحدنا ؟

ان اللهجات العامية تتعور وتهذب ويذلك الحشن فيها فيلين واكنها لا ولن تغلب - ويجب الا تغلب - لانها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغاً من البيان

ان اللغات تتبع مثل كل شيء آخر سنة بقا الانسب ، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الانسب الذي سيبقى لانه اقرب الى فكرة الامة وادنى الى



مرامي ذاتها العامة : قلت انه سيبقى واعني بذلك انه سيلتحم بحجم اللغة ويصير جزءاً من مجموعها

لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامية ، وتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكر ، بل في اوربا واميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشحاتهم فجاءت بليغة ومؤثرة : وعندني أن في الموالي والزجل و « العتابا » و « المعنى » من الكنايات المستجدة والاستعارات المستملحة والتعابير الرشيقة المستنبطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة ، والتي تملأ جرائدنا ومجلاتنا ، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب ، او كسرب من الصبايا الراقصات المترنمات قبالة مجموعة من الجثث المحنطة

لقد كانت اللغة الايطالية الحديثة لهجة عامية في القرون المتوسطة ، وكان الخاصة يدعونها بلغة « الهمج » ، ولكن لما نظم بها داتي وبتراك وكامونس وفرنيس داسيزي قصائدهم وموشحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة ايطاليا الفصحى وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلاً يسر ولكن في نعش على اكتاف الرجعيين . . وليست اللهجات العامية في مصر وسوريا والعراق ابعد عن لغة المعري والمنبجي من لهجة « الهمج » الايطالية عن لغة اوقيدي وفرجيل . فاذا ما ظهر في الشرق الادنى عظيم ووضع كتاباً عظيماً في احدى تلك اللهجات نحوأت هذه الى لغة فصحي . بيد أني استبعد حدوث ذلك في الاقطار العربية لان الشرقين أشد ميلاً الى الماضي منهم الى الحاضر أو المستقبل ، فهم المحافظون على معرفة منهم او على غير معرفة ، فان قام كبير بينهم لزم في اظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الاقدمون ، وما سبل الاقدمين سوى اقصر الطرق بين مهد الفكر ولحده

•••

(٧) وما هي خير الوسائل لاهياء اللغة العربية ؟

أن خير الوسائل ، بل الوسيلة الوحيدة لأحياء اللغة هي في قلب الشاعر وعلى شفتيه وبين أصابعه ، فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالم النفس الى عالم البحث ، وما يقرره عالم الفكر الى عالم الحفظ والتدوين

الشاعر أبو اللغة وأما ، تسير حينما يسير وتربض أينما بربض ، وإذا ما قضى جلست على قبره بأكية متعجة حتى يمر بها شاعر آخر ويأخذ بيدها  
وإذا كان الشاعر أبو اللغة وأما فليقتد ناسج كفنها وحفار قبرها  
أعني بالشاعر كل مخترع كبير أو صغيراً ، وكل مكتشف قويا كان أضعيفاً ، وكل مخلق عظيم كان أوحقيراً ، وكل محب للحياة المجردة أماماً كان أوصعولكاً ، وكل من يقف متهيّباً أمام الأيام والليالي فيأسوفاً كان أو ناظوراً للكروم

أما المقلد فهو الذي لا يكتشف شيئاً ولا يخلق أمراً بل يستمد حياته النفسية من معاصريه ويصنع أبوابه المعنوية من وقع نجرها من أبواب من تقدمه  
أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفتح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه فيحني بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد ؛ وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد ؛ وذلك الخائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف من الاقمشة التي يصنعها جيرانه الخائكون فيقوم بعده من يدعو نسيجه هذا باسم جديد . أعني بالشاعر الملاح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً ، والبناء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلها ذات باب واحد ونافذة واحدة ، والصبغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها احد قبله فيستخرج لوناً جديداً ، فيأتي بعد الملاح والبناء والصبغ من يدعو تمار اعمالهم بأسماء جديدة فيضيف بذلك شراعاً الى سفينة اللغة ونافذة الى بيت اللغة ولوناً الى ثوب اللغة



أما المقلد فهو ذلك الذي يسير من مكان الى مكان على الطريق التي سار عليها الف قافلة وقافلة ولا يجيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع ، ذلك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه وما كله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها الف جيل وجيل فتظل حياته كرجع الصدى ويبقى كيانه كظلال ضئيل لحقيقة قصية لا يعرف عنها شيئاً ولا يريد أن يعرف

أعني بالشاعر ذلك المتعبد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادياً مهلاً مصغياً مناجياً ثم يخرج وبين شفثيه ولسانه أسماء وافعال وحروف واشتقاقات جديدة لاشكال عبادته التي تتجدد في كل يوم وأنواع أنجذابه التي تتغير في كل ليلة فيضيف بعمه هذا وتراً فضياً الى قيامة اللغة وعوداً طيباً الى موقدها

أما المقلد فهو الذي يردد صلاة المصلين وابتهاال المبتهلين بدون ارادة ولا عاطفة فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية أعني بالشاعر ذلك الذي ان أحب امرأة انفردت روحه وتنحت عن سبل البشر لتلبس احلامها اجساداً من بهجة النهار وهول الليل ولولة العواصف وسكينة الاودية ثم عادت لتصرف من اختبارها اسكياً لرأس اللغة وتصوغ من اقتناعها فلادة لعنق اللغة

أما المقلد فمقلد حتى في حبه وغزله وتشبيهه فان ذكر وجه حبيبته وعنتها قال « بدر وغزال » وان خطر على باله شعرها وقدها ولحظها قال ( ليل وغصن بان وسهام » وان شكى قال « جفن ساهر وفجر بعيد وعزول قريب » وان شاء أن يأتي بمعجزة بيانية قال « حبيبي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الحدود وتعض على غناب اناملها يبرد اسنانها » . يترنم صاحبنا البيغاء بهذه الاغنية العتيقة وهو لا يدري انه يسمم بيلادته دسم اللغة ويمتحن بسخافته وابتذاله شرفها ونبالها

قد تكلمت عن المستنيط ونفعه والعقيم وضرره ولم اذكر أولئك الذين



يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطولات وتشكيل المجامع اللغوية - لم اقل كلمة عن هؤلاء، لاعتقادي بهم كاشاطىء بين مد اللغة وجزرها وان وظيفتهم لا تتعدى حد الغرلة - والغرلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربون اذا كانت قوة الابتكار في الامة لا تزرع غير الزوان ولا تحصد الا الهشيم ولا تجمع على يادها سوى الشوك والقطرب ؛

اقول ثانية ان حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر قبل عندنا شعراء ؛

نعم عندنا شعراء ، وكل شرقي يستطيع ان يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وامام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته . كل شرقي يستطيع ان يعشق نفسه من سجن التقليد والتقاليد ويخرج الى نور الشمس فيسير في موكب الحياة . كل شرقي يستطيع ان يستسلم الى قوة الابتكار المختبئة في روحه - تلك القوة الازلية الابدية التي تقيم من الحجارة ابنا لله

اما اولئك المنصرفون الى نظم مواهبهم ونثرها فليهم اقول : ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانعاً عن اقتفاء أثر المتقدمين فخير لكم واللغة العربية ان تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضعية من ان تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المتنبية . ليكن لكم من عرة نفوسكم زاجراً عن نظم قصائد المديح والزناج والتهنئة فخير لكم واللغة العربية ان تموتوا مهملين محقرين من ان تحرقوا قلوبكم بخور امام الانصاب والاصنام . ليكن لكم من حماستكم القومية دافعاً الى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الالم وعجائب الفرح فخير لكم واللغة العربية ان تنازلوا ابط ما يتمثل لكم من الحوادث في محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من ان تعربوا اجل واجمل ما كتبه الغربيون

جبران خليل جبران